موتُ الإنْسَانِ الخُلُقي
نَقدُ اختزالِ الإنسان إلى كائنٍ نُفْعي في الليبراليَّة والسوق

■ أ. د. بهاء درويش[1]

ملخّص

يحاول هذا البحث بيان أنَّ الإنسان، عبر كلِّ الحضارات المتعاقبة، قد ارتبط بمجموعة من القِيَم الإنسانيَّة العُليا، كانت المحرِّك لسلوكه وفكره، حتَّى أنَّ كلَّ حضارة عُرِفت بمجموعة معيَّنة من القِيَم، شاركت في تحديد سماتها، إلى أنْ جاء العصر الحديث، أو تحديدًا الحضارة الغربيَّة، فتغيَّرت القِيَم المصاحبة لها تغيُّرًا يبرِّر لنا القول بموت الإنسان الخُلُقي، وذلك عندما سادت الرأسماليَّة بقِيَمها النفعيَّة، لتعلو بها فوق كلِّ قِيَم إنسانيَّة أخرى، ومن ثَمَّ تختزل الإنسان في كونه كائنًا تتحدَّد هُويَّته في قِيمته، وتتحدَّد قِيمته وفقًا لقِيَم المنفعة السوقيَّة.

سيتَّخذ هذا البحث منحى تاريخيًّا، يبيِّن أهمّ القِيَم الإنسانيَّة التي ارتبطت بكلِّ حضارة، لينتهي بقِيَم الحضارة الغربيَّة، التي يحيا العالم في ظلِّها الآن، ثمَّ يبيِّن- باستخدام المنهج التحليلي النقدي- كيف خذلت قِيَم النفعيَّة والسوق والمصلحة التي سادت حضارتنا الراهنة مُفكِّري الغرب، الذين كانوا يأملون مع بداية عصر الحداثة - ويمنُّون أنفسهم والعالم- تحقيق قِيَم الإنسانيَّة العُليا في الإخاء، والمساواة، والعدالة.

الكلمات المفتاحية: القِيَم، المنفعة، البوذيَّة، التسامح، الكونفوشيَّة، الحداثة، التنوير، الشعبويَّة.

١ - أستاذ الفلسفة جامعة المنيا، مصر، ونائب رئيس اللجنة الدوليَّة لخُلُقيات البيولوجيا، اليونسكو، باريس.

Death of Moral Man

Critique of Reduction of Man to Utilitarian Being in Liberalism, Market

■ Prof. Bahaa Darwish[1]

Abstract

This research attempts to demonstrate that throughout all successive civilizations, humanity has been bound to a set of supreme human values that have driven its behavior and thought. Every civilization was known for a specific set of values that contributed to defining its characteristics, until the modern era, or more specifically Western civilization, arrived. At that time, the values associated with it changed in a way that justifies our assertion of the death of moral humanity. This occurred when capitalism, with its utilitarian values, prevailed, elevating it above all other human values. Consequently, humanity was reduced to a being whose identity was defined by its value, and whose value was determined according to the values of market profit.

This research will take a historical approach, showing the most important human values that have been associated with each civilization, ending with the values of Western civilization, under which the world now lives. Then it shows, using the critical analytical method, how the values of utilitarianism, the market, and self-interest that prevailed in our current civilization failed the thinkers of the West, who, at the beginning of the modern era, hoped, and promised themselves and the world, to achieve the highest human values of fraternity, equality, and justice.

Keywords:

Values, Utility, Buddhism, Tolerance, Confucianism, Modernity, Enlightenment, Populism.

1 -Professor of Philosophy, Minia University, Egypt, Vice-President of the International Bioethics Committee, UNESCO, Paris.

مقدِّمة

ارتبط مفهوم «الإنسان»، عبر كلِّ الحضارات المتعاقبة، بمجموعة من القِيَم الخُلُقيَّة ميَّزته عبر التاريخ، وجعلت من هذه القِيَم ما يميِّزه عن غيره من الكائنات، من حيث إنَّها قِيَم عُليا تتسامى بالإنسان عن أيِّ كائن آخر.

كيف يكتسب المجتمع قِيَمه الخُلُقيَّة؟ أو كيف تسود قِيَم ما في مجتمع ما؟

يكتسب المجتمع القِيَم الاجتماعيَّة من الثقافة والعادات والتقاليد، والدين- إذا كان المجتمع متديِّنًا- وبعضها يكتسبه المجتمع من الخبرة والمراجعة الذاتيَّة. فالقِيَم الروحانيَّة يكتسبها المجتمع من الدين، بينما يكتسب احترام الكبير مثلاً من العادات والتقاليد، أما المحافظة على الطبيعة، وحقّ الأجيال المستقبليَّة في بيئة نظيفة، فهي من القِيَم التي اكتسبها الإنسان المعاصر من التجربة والخبرة، ولم تكن مجال اهتمامه قبل العصر الحديث. ويحدث أنْ تتغيَّر القِيَم المجتمعيَّة- خاصَّة في عصرنا الراهن حيث تعقّد الحياة- نتيجة التفاعلات الثقافيَّة بين المجتمعات، فتنتقل قِيَم من مجتمع لآخر.

للقِيَم تعريفات مختلفة، فهي ما يوجِّه السلوك، وتكون دافعًا له، وتحدِّد الاختيارات، وتكوِّن هُويَّة الفرد. وهناك من يعرِّفها- مثل (دافيد جرابر -David Graeber)- بأنَّها "الطريقة التي تصبح بها الأفعال ذات معنى ضمن كيان اجتماعي أكبر، حقيقي أو خيالي".

ولكنَّ هناك تعريفًا آخر للقِيمة، وهو أنَّها ليست إلا إجماعًا اجتماعيًّا بين الناس في ما يعطي معنى لحياتهم. ومن هنا، كانت قابلة للتغيير. فإذا حدث أنْ ارتأى أفراد مجتمع ما أنَّ رؤيتهم لما هو قِيَم لا تُعطي معنىً لحياتهم، فيجب أنْ يتغيَّر هذا الإجماع، وهو قابل للتغيير. ولتحقيق ذلك،

يجب أنْ ننظر إلى ما وراء جدران نظام قِيَمنا الحالي[1].

نريـد- في هذا البحث- أنْ نحاجج بأنَّ القِيَم الإنسـانيَّة العُليا ارتبطت بالحضارات والثقافات الإنسـانيَّة المتعاقبة، إلى أنْ جاء العـصر الحديث، أو تحديدًا الحضـارة الغربيَّة، فتغيَّرت القِيَم المصاحبة لها تغيُّرًا يبرِّر لنا القول بموت الإنسـان الخُلُقيّ، واختزال قِيمته في كونه كائنًا تتحدَّد قيمته وفقًا لقِيَم المنفعة السوقيَّة.

لماذا حدث هذا؟ وكيف حدث؟ هذا ما سنحاول بيانه.

أوَّلًا: القِيَم الإنسانيَّة في الفكر الهندي القديم

يتَّفق المؤرِّخون على أنَّ الفكر الهندي قد بدأ في الماضي السحيق قبل آلاف السنين في تأمُّلات حكماء «الفيدا»، أصحاب الكتب المقدَّسة الهندوسيَّة الأقدم التي كانت تتضمَّن أناشيد تمجيد الآلهـة، وترانيم تصاحب تقديم القرابين. ورغم أنَّ الفكر الهندي يتَّصف بالثراء والتعقيد؛ حيث يكون من الصعب استنتاج سمات عامَّة له، فإنَّه يمكن القول إنَّ أكثر سماته استمراريَّة أو رواجًا هو طابعه العملي. فلقد جاء الفكر الهندي انعكاسًـا واسـتجابة لدوافع عمليَّة وتأمُّليَّة، باعتباره محاولة للبحث عن سبل التغلّب على أشكال المعاناة، وتقديم وصف تفسيري لطبيعة الوجود[2]. عـلى هذا النحـو، كان الفكر الهندي قديمًا منذ ما يقارب من ٢٥٠٠ سـنة يتصوَّر أنَّ لكلِّ امرئٍ أربعة أهداف في الحياة يجـب أنْ يحقِّقها، وهي العيش الفاضل أو الورع (دارما) (Dharma)، ثمَّ وسـائل الحياة (أرثا) (Artha)، ثمَّ المتعة (كاما) (Gamma)، وأخيراً تحرير النفس (موكشا) (Moksha).

على كلِّ فرد أنْ يكافح من أجل تحقيق هذه الأهداف الأربعة. ولأنَّ الإنسان مكوَّن من وجود عضـوي وروحي، فلا بدَّ من إشـباع الحاجـات العضويَّة والروحيَّة، لكي تُعـاش الحياة بكامل زخمها. فالكيفيَّة التي يجب أنْ يتصرَّف بها المرء تجاه الآخرين تندرج تحت الـ (دارما)، والكيفيَّة التي يجب أنْ يتصرَّف بها المرء تجاه الثروة والخيرات الماديَّة تندرج تحت (أرثا)، والكيفيَّة التي

1 - Pazaitis, A: The Value of Exploitation: How to Reclaim Our Lives and Livelihoods.

٢ - جون كولر: الفكر الشرقي القديم، ص٢٣-٢٤.

يجب أنْ يسلك بها تجاه ملذَّات الحياة تندرج تحت الـ (كاما)، وأخيراً، الكيفيَّة التي يجب أنْ يسلك تجاه تحقيق الذات تندرج تحت الـ (موكشا).

تجيب هذه الأهداف الأربعة عن هذا السؤال: كيف يجب أنْ يحيا المرء الحياة الخيِّرة؟[1].

وإذا كانت الـ«دارما» هي الواجب الخُلُقي للفرد، فإنَّها بالنسبة للمجتمع تقدِّم القواعد لتسوية النزاعات؛ ذلك أنَّه عندما يجري إبقاء صراعات المصالح بين الأفراد والجماعات عند حدِّها الأدنى، عندئذٍ يمكن الحفاظ على المجتمع بصورة جيِّدة.

ولمَّا كان الإنسان لا يحيا بالاستقامة والعدل وحدهما، وإنَّما بالخبز والفراش، فإنَّه من الطبيعي أنْ يوجد إلى جانب هدف الـ «دارما» هدفان آخران هما «آرثا» و «كاما» . ولمَّا كان تجميع الثروات والأملاك ليس هدفًا نهائيًّا في ذاته، فإنَّ الهدف الإنساني الرابع «موكشا»، الذي يعني التحرُّر أو الحُريَّة الكاملة، يعكس التأكيد على أهمّيَّة الطبيعة الروحانيَّة للحياة الإنسانيَّة في الهند[2].

ثانيًا: القِيَم الإنسانيَّة في البوذيَّة

فإذا ما انتقلنا إلى البوذيَّة بصفتها دينًا وفلسفة نشأت عن تعاليم (بوذا-Buddha) الذي عاش في شمال الهند في الفترة بين منتصف القرن السادس والقرن الرابع قبل الميلاد، ثمَّ اتَّسع انتشارها إلى وسط آسيا وجنوبها، والصين، وكوريا، واليابان، نجد أنَّها أثَّرت تأثيراً كبيراً في الحياة الروحيَّة والاجتماعيَّة والثقافيَّة في آسيا حتى الآن.

وبعد وفاة (بوذا)، انقسمت البوذيَّة في اتجاهين: اتجاه يطلق عليه " ثرافادا Theravada" جعلت تعاليم (بوذا) -الموجودة في المجموعتين «سوتا بيطاقا Sutta Pitaka» التي تحوي المبادئ الأساس للبوذيَّة، و«فينايا بيطاقا Vinaya Pitaka»، وهي أقدم التعاليم البوذيَّة المنظَّمة وأضغرها للحياة الرهبانيَّة والشؤون اليوميَّة للرهبان والراهبات وفقًا للقواعد التي وضعها (بوذا) - هي معايير البوذيَّة. إذا ذهبنا إلى سيريلانكا وكمبوديا وتايلاند، نجد هذه الخصائص الثقافيَّة للبوذيَّة الثرفاديَّة تهيمن على حياة المواطنين هناك. أما في التبت، والصين، وكوريا، واليابان،

١ - جون كولر: الفكر الشرقي القديم، ص٦٩.
٢ - جون كولر: الفكر الشرقي القديم، ص٦٨-٦٩.

وفيتنام، فقد سيطرت الخصائص الثقافيَّة للاتجاه الثاني، المُسمَّى البوذيَّة المهايانيَّة؛ حيث اعترفوا بسلطة التعاليم الأخرى التي، من وجهة نظر المجموعة، جعلت الخلاص متاحًا لعدد أكبر من الناس. ورغم هذا الانقسام للبوذيَّة إلى اتجاهين، فلقد حافظ الاتجاهان على المبادئ الأساس للبوذيَّة[1] التي في مقدِّمتها الخصائص الثقافيَّة الآتية:

١. التأكيد على الكرامة الإنسانيَّة

يُنظَر للبشر في الثقافات البوذيَّة على أنَّهم ليسوا خاضعين لأحد، لا للإله، كما هو الحال في ديانات التأليه؛ حيث يخضع البشر للإله الذي خلقهم ليتَّفق مع أهدافه، ولا هم خاضعون للطبيعة والأشياء الماديَّة، كما هو الحال في الثقافات الماديَّة.

٢. اللا تعلُّق

لا يربط البوذيُّون أنفسهم بالأشياء، أو بأيّ شيء؛ لأنَّهم يعلمون أنَّ كلَّ شيء إلى زوال، فلا نفس ستبقى للأبد، وبالتالي فلا شيء يزعجهم، ويتقبَّلون الحياة عن طواعية.

٣. التسامح

يتَّصف البوذيُّون بالتسامح تجاه الديانات الأخرى، والتفاسير المختلفة للبوذيَّة، فعلى الرغم من الاختلافات الكبيرة الموجودة بين البوذيّين في مختلف دول العالم، فإنَّهم يعترفون ببعضهم بصفتهم بوذيِّين. ولا ينظرون إلى غير البوذيِّين على أنَّهم أدنى منهم.

٤. اللا عنف

في القرون الخمس والعشرين التي مضت منذ نشأة البوذيَّة، والتي أصبح معها معتنقو البوذيَّة يتجاوز عددهم الأربعمئة مليون نسمة، لم تُشن حروب، ولم تُسفك دماء في غمار نشر التعاليم؛

1 - H. Nakamura & F. Reynolds: Buddhism.

إذ إنَّ العنـف مناقض لتعاليم البوذيَّة، ويشـيع بينهم أنَّ العنف والغضب لا سـبيل لتهدئتهما إلا بالطيبة والشفقة.

٥. التأمُّل

من أجل الانضباط الذاتي وتنقية النفس، ومن أجل المشـاركة مع الواقع دون وسائط رغبات أو طموحـات تؤدي إلى اغتراب النفس عن ذاتها، تؤكِّد البوذيَّة على ضرورة التأمُّل لتحقيق هذه الأهداف.

٦. التوجُّه العملي

عندما يكون الإنسـان في سلام مع نفسه، ولا تتنازعه رغبات، ولا تعذِّبه شكوك، فإنَّه يستطيع التركيـز في اللحظة الراهنة. فالأمـور الحياتيَّة العاديَّة، كتناول الطعـام، لا يُنظر إليه على أنَّه أمر ثانوي عليه الانتهـاء منه للانتباه إلى أمور الحياة الحقيقيَّة، ولكن يُنظر إلى تناول الطعام على أنَّه هو ذاته من أمور الحياة الحقيقيَّة.

كذلك يهتم البوذيّ بالتفكير في الماضي، ليتعلَّم منه ويستشراف المستقبل. لكن هذا النشاط يُعدّ نشـاطًا ينتمي للحاضر، وليس للماضي أو المسـتقبل. فالسعادة الحقيقيَّة تُنتَج عن ممارسة النشاط الحاضر، ولا تنتج عن البكاء على الماضي، أو التفكير في المستقبل[1].

ثالثًا: القِيَم الإنسانيَّة في الفكر الصيني

شكَّلت أفكار الكونفوشيَّة، والتاويَّة، والكونفوشيَّة الجديدة، فكر الشعب الصيني ومؤسَّساته، عبر ما يزيد عن خمسة وعشرين قرنًا من الزمان، وكانت مصدر إلهام له. لم يكن هدف الفلسفة هو فهم العالم بِقَدَر ما كان هدفها جعل الناس عظماء. وعلى الرغم من أنَّ الفلسفات الثلاث تشترك في هذا الهدف، فإنَّها تختلف فيما يتعلَّق بمصدر العظمة الإنسانيَّة. وبعيدًا عن الاختلافات، فإنَّ

١ - جون كولر: الفكر الشرقي القديم، ص٣٠٧-٣١٠.

عظمة المرء عظمة داخليَّة، وأخرى خارجيَّة. فالعظمة الداخليَّة هي شموخ الروح الذي ينعكس في سلام الفرد ورضاه بكماله. أمَّا العظمة الخارجيَّة فتتجلَّى في قدرة المرء على العيش بصورة جيِّدة على الصعيد العملي، مع الشعور بالعزَّة في السياق الاجتماعي الذي يوجد فيه المرء في حياته اليوميَّة. ولما كانت عظمة الأشخاص هي مناط الاهتمام الرئيس، فالاهتمام بالبشر تأتي سابقة على الاهتمام بالأشياء. والتأكيد على العظمة الإنسانيَّة يؤدِّي إلى التأكيد على الأخلاق والحياة الروحيَّة. فالروح، وليس الجسد، هي الجانب الأهمّ في الوجود البشري. هذه الروح لا بدَّ من رعايتها لكي تتطوَّر حسب قدرتها. وقد أدَّى وضع العظمة موضع الممارسة إلى التأكيد على الفضائل العائليَّة، وبصفة خاصَّة مفهوم حب الأبناء للآباء، الذي يشكِّل حجر الزاوية للأخلاق الصينيَّة[1].

رابعًا: القِيَم الإنسانيَّة في العصر اليوناني القديم

إذا بدأنا بالعصر القديم لليونان الذي يمتدُّ من ٨٠٠ ق. م إلى ٤٩٠ ق. م، والتي بدأ معها نشوء المستعمرات اليونانيَّة على الجزر اليونانيَّة وعلى الساحل الغربي للأناضول، وظهور ما عُرف بدولة المدينة، نجد هذه المنطقة تُسمَّى إيونيا؛ حيث كان سكَّانها اليونانيّون يتحدَّثون لهجة يونانيَّة تُسمَّى الأيونيَّة. أعاد هؤلاء اليونانيّون تأسيس طرق تجاريَّة بعيدة المدى، وأهمُّها مع الفينيقيين، كبار تجَّار العصر الحديدي. وفي نهاية المطاف، بدأت السلع الأجنبيَّة والروابط الثقافيَّة بالتدفُّق إلى اليونان من جديد.

ومن بين التأثيرات المتنوِّعة التي تلقَّاها الإغريق الأيونيّون من الفينيقيّين، لم يكن أيٌّ منها أكثر أهميَّة من أبجديَّتهم. وبالاستناد إلى النسخة الفينيقيَّة، طوّر الإغريق الأيونيّون أبجديَّتهم الخاصَّة. سرعان ما بدأ اليونانيّون بتسجيل ليس فقط سجلات الضرائب والمعاملات التجاريَّة، بل أيضًا أدبهم وشعرهم ومسرحهم. يعود تاريخ أقدم الأدب اليوناني المتبقِّي إلى قرابة ٨٠٠-٧٥٠ قبل الميلاد؛ بفضل استخدام هذه الأبجديَّة الجديدة.

---

١ - جون كولر: الفكر الشرقي القديم، ص٣١٢-٣١٤.

دوّنت ملحمتـا (هوميروس -Homeros): "الإلياذة" (Iliad) و"الأوديسـة" (Odyssey) في هـذه الفترة، بعد أنْ تلاهما الرحَّالة شـفويًّا لقـرون. زعمتا أنَّهما تسردان مآثـر أبطال عظماء من العصر الميسـيني، مقدمةً في الوقت نفسه نسـيجًا غنيًّا من المعلومات عن القِيَم، والمعتقدات، والممارسـات اليونانيَّة القديمة للثقافات اللاحقة. احتفت كلتـا القصيدتين بـفضيلتي "التميّز" و"النجاح"، التي يجب فهمهما باعتبارهما سـمتين خُلُقيَّتين بِقَدَر ما هما سـمتين جسديَّتين أو عقليَّتين. طوال الملحمتين، يكافح الرجال والنسـاء للتغلُّب على بعضهم بعضًا، وعلى قيودهم الخاصَّة، بينما يتصارعون مع القيود التي تفرضها الطبيعة، والصدفة، وإرادة الآلهة.

لقد خاطبت القِيَم المتجسِّدة في قصائد (هوميروس) إغريق العصر القديم في كيفيَّة تحديدهم لما هو جيّد ومرغوب فيه في السلوك البشري عمومًا. ركَّز الإغريق على طريقتين يمكن من خلالهما للرجل (ولطالما كان رجلاً في الفلسـفة اليونانيَّة؛ إذ أُقصيت النسـاء عمدًا) السيطرة على الرجال الآخرين: من خلال قوَّة السلاح، ومهارة الكلام. وهكذا، كان على الرجل إتقان المجالين الرئيسين: الحرب والبلاغة: القدرة على هزيمة الأعداء في المعركة، والقدرة على إقناع الحلفاء المحتملين.

كان المُهمّ عند الإغريق هو الأداء العلني للتميّز، لا الفضيلة الشخصيَّة أو حسن النيَّة. ما كان يهمّ هو أداء الرجل علنًا، في المعارك، وفي المنافسات الرياضيَّة، أو في منتديات النقاش العامَّة التي ظهرت في المدن-الدول الناشئة في اليونان القديمة. كان الخوف من العار جزءًا أصيلاً من السـعي وراء التميّز؛ فلم يكن للمسابقات اليونانيَّة (في كلِّ شيء، من ألعاب القوى إلى الشعر) فائـزون بالمركز الثاني، وكان الخاسرون يُسـخر منهم علنًا في أعقاب المسـابقات. كان لفكرة النقاش العام والمنافسـة تأثير هائل على تطوُّر الثقافة اليونانيَّة، وهو تأثير انتشر لاحقًا في جميع أنحاء منطقة البحر الأبيض المتوسِّط.

انعكسـت القِيَم اليونانيَّة مباشرةً في النظام السياسي اليوناني الفريد. شهد العصر القديم أهمّ الابتكارات السياسـيَّة اليونانيَّـة؛ حيث تبلورت لأوَّل مرَّة مفاهيم المواطنة القانونيَّة والمسـاواة، وممارسة التصويت على القوانين، ومفهوم خاص للفخر السياسي، يُعرف الآن بالوطنيَّة[1].

1 - C. Brooks: The Archaic Age and Greek Values. Portland Community College.

كانــت دولة المدينة الإغريقيَّة - إذا ما قورنت بالدولــة الحديثة- صغيرة في حجمها وقلَّة عدد سكّانها. ورغم أنَّه من الصعب تحديد عدد السكان بصورة قاطعة، فإنَّه يمكن القول إنَّ العدد في المتوسّط قد بلغ في قرابة ثلاثمئة ألف نسمة. أمَّا سكَّان المدينة، فكانوا ثلاث طبقات رئيسة متميِّزة من الناحيتين السياسيَّة والقانونيَّة. شكَّلت هذه الطبقات شكل هرم، قاعدته طبقة الأرقَّاء؛ حيث كان نظام الرقّ عنصرًا مميّزًا للنظام الاقتصادي في دولة المدينة، بمثل ما يتميَّز النظام الاقتصادي الحديث بوجود طبقة أصحاب الأجور. أمَّا من الناحية السياســيَّة، فلم تدخل المدينة الإغريقيَّة الأرقَّاء في حسابها على الإطلاق.

أما الطبقة الرئيسة الثانية، فكانت طبقة الأجانب المُقيمين في المدينة، ورغم أنَّه لم يكن هناك نظام للتجنيس القانوني، فلم تكن الإقامة لتؤثّر في استمرار صفة الأجنبي، ولو امتدَّت هذه الإقامة أجيالاً متتابعة، ما لم ينخرط الأجنبي في ســلك المواطنين نتيجة لإهمال السلطات أو تغافلها. كان الأجنبي- مثله في ذلك مثل الرقيق- محرومًا من المساهمة في الحياة السياسيَّة، وذلك برغم كونه حُرًّا.

أمَّا الطبقة الثالثة، طبقة المواطنين، وهؤلاء فقط لهم حقّ المشاركة في الحياة السياسيَّة. وصفة المواطــن ميزة يتوارثهــا الأبناء. والابن يُعدّ مواطنًا في المدينة التــي يتمتَّع فيها والده بعضويّتها. وتؤهّــل صفة المواطنة المواطن للمشــاركة في النشــاط الســياسي للمدينــة الدولة من حضور لاجتــماع المدينة، الذي تتفاوت أهمِّيَّته تبعًا لمدى الديموقراطيَّة الســائدة إلى صلاحيَّة متفاوتة لتوليّ الوظائف العامَّة، التي يتغيَّر عددها أيضا تبعًا لدرجة الديموقراطيَّة المُطبَّقة في المدينة[1].

كان لدى المواطنين شــعور قوي بالانتماء للمجتمع، نشــأ عنه مفهوم الفضيلة المدنيَّة: فكرة أنَّ أسمى دعوة خُلُقيَّة هي تغليب مصلحة المجتمع على رغبات الفرد الأنانيَّة. كان هذا المفهوم فريدًا من نوعه تقريبًا في أيّ مكان آخر في العالم القديم. فبينما تماهت شعوب قديمة أخرى مع موطنها الأصلي، ربطت نفســها في معظم الحالات بســلالات الملوك، بدلاً من فكرة المجتمع المجرَّدة. كما كان جميع المواطنين اليونانيين متساوين أمام القانون، وهو ما مثّل تحوُّلاً جذريًا؛

١ - جورج سباين: تطور الفكر السياسي، ج١، ص٤٠-٤٢.

إذ كانت لدى معظم الحضارات الأخرى مجموعات مختلفة من القوانين بناءً على الهويَّة الطبقيَّة.

كانت الفضيلــة المدنيَّة، وثيقة الصلة بمفهوم الوطنيَّة الحديث، مصــدر قوَّة وفكرة مؤثِّرة؛ إذ استمرَّت خلال العصر اليوناني الكلاسيكي، وانتقلت عبر فتوحات (الإسكندر الأكبر)، وأصبحت في نهايــة المطاف أحد أهم المعايير الخُلُقيَّة، إنْ لم تكــن أهمّها، في الجمهوريَّة والإمبراطوريَّة الرومانيَّة. واستمرَّ تأثيرها في نهاية المطاف على المفكِّرين والسياسيين حتى يومنا هذا[1]. فلقد كانــت لدى الأثينيين أســمى شرف، وليس في كنوز الأرض ما يفوقهــا؛ إذ ما جدوى المال غير تمكين المواطن من أنْ ينعم بالمســاهمة الفعليَّة في حياة المدينة؟! فليســت الأسرة والأصدقاء والأمــوال إلا وســائل للتمتُّع بالخير الأســمى، الذي يتمثَّــل في أنْ يكون للفــرد مكان في حياة المدينة[2].

خامسًا: القِيَم الإنسانيَّة قبل الإسلام

إذا عدنا إلى ما كان يُسمَّى بالعصر الجاهلي، يمكننا القول إنَّ القيمة البارزة التي كانت تحكم القبائل والعشائر في الجزيرة العربيَّة كانت قيمة التضامن؛ إذ كان أفراد كلِّ قبيلة متضامنين أشدّ ما يكــون التضامن. أحكم الشرف عُرى هذا التضامن، والذي تجمَّعت حوله مجموعة من الخلال الكريمــة، تجمعها كلمة المروءة، والتي من مظاهرها الحلم، والكــرم، والوفاء، وحماية الجار، وسعة الصدر، والغضّ عن العوراء[3].

ولم تكن عندهم خصلــة تفوق خصلة الكرم، بعثتها فيهم الصحــراء المجدبة، وكثيرًا ما كان الغني يذبح إبله في ســنين القحط يطعمها بني عشــيرته، كما يذبحها قرير العين لضيوفه الذين ينزلون به أو تدفعهم الصحراء إليه.

كذلــك كانــوا يُقدِّرون الوفاء، فإذا وعــد أحدهم وعدًا أوفى به، وأوفت معــه قبيلته بما وعد، وأشــادوا بحماية الجار؛ لأنَّه اســتجار بهم، وجعلهم هذا يُقدِّرون الأحلاف فلا ينقضونها مهما

1 - C. Brooks: The Archaic Age and Greek Values. Op. Cit.

٢ - جورج سباين: تطور الفكر السياسي، ج١، ص٥٠.

٣ - شوقي ضيف: العصر الجاهلي، ص٦٧

قاسوا بسببها من حروب.

كذلـك اتَّصفوا بإغاثة الملهوف، وحماية الضعيف، والعفـو عند المقدرة، وقد تمدحوا بهذه القِيَم في شعرهم[1].

سادسًا: القِيَم الإنسانيَّة في العهد الإسلامي

جاء الإسـلام فرسم للمسلمين- إلى جانب عقيدتهم- طريق الفضيلة، وما ينبغي أنْ يتحلّوا به في سـلوكهم وأخلاقهم. يقول تبارك وتعالى: ﴿**وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَـلَامًا* وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُـجَّدًا وَقِيَامًا* وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا* إِنَّهَا سَـاءَتْ مُسْـتَقَرًّا وَمُقَامًا* وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا* وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَـهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَـرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا* يُضَاعَفْ لَهُ الْعَـذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا* إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَـئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَـيِّئَاتِهِمْ حَسَـنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا* وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا* وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا**﴾ [الفرقان: ٦٣-٧٢]. ﴿**وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ* وَإِن جَاهَـدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَاتَّبِعْ سَـبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ* يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّـمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ* يَا بُـنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ* وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ* وَاقْصِدْ فِي مَشْـيِكَ وَاغْضُضْ مِـن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ**﴾ [لقمان: ١٤-١٩]. كذلك نهى الإسـلام عن الغِيبة والظنّ، قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا**

١ - شوقي ضيف: العصر الجاهلي، ص٦٩

﴿يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ۖ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ* يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١١-١٢].

فالإسلام حرَّم الفواحش كلَّها ما ظهر منها وما بطن. ومن ناحية أخرى، يدعو دائمًا إلى الخير والارتفاع عن النقائص، يقول تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤]. فالإسلام -مضافًا إلى أنه عقيدة- فإنَّه أيضًا سلوك خُلُقي قويم، يدعو إلى طهارة النفس، ونبذ كلّ الفواحش والرذائل[١].

وكذلك أرسى الإسلام قِيَمًا اجتماعيَّة من شأنها أنْ تجعل الأُمَّةَ أُمَّةً مثاليَّة يتعاون أفرادها على الخير، آمرين بالمعروف وناهين عن المنكر، يسودهم البرّ والتعاطف، لا فوارق قَبَليَّة بينهم، بل جميعهم أخوة سواء في الحقوق والواجبات، تربطهم قيمة الإيثار؛ حيث يبذل كلّ منهم لأخيه وللأُمَّة كلّ ما يستطيع، فهو لا يعيش لنفسه، وإنما للجماعة يفديها بروحه[٢].

كذلك نظَّم للمرأة حقوقها، ورعاها خير رعاية وجعلها كفؤًا للرجل، لها ما له من حقوق، وجعل ذمَّتها الماليَّة ذمَّة مستقلَّة.

ولكي يسمو الإسلام بإنسانيَّة الإنسان، نبَّهه إلى أنَّ الطبيعة مسخَّرة لمنفعته، ودعاه لإعمال عقله في فهم قوانينها وسبر غورها. ويؤكِّد القرآن الكريم مرارًا وتكرارًا على مسألة سموّ الإنسان، ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤] ، وجعله خليفته على الأرض[٣].

سابعًا: العصور الوسطى الغربيَّة

تمثِّل العصور الوسطى الغربيَّة الفترة من القرن الخامس الميلادي حتى القرن الخامس عشر

١ - شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي- العصر الإسلامي، ص١٤-١٥.
٢ - شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي- العصر الإسلامي، ص١٩.
٣ - شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي- العصر الإسلامي، ص٢٢-٢٣.

مع بداية عصر النهضة. وهذا المصطلح « العصور الوسطى» أطلقه مفكِّروا القرن الخامس عشر لتسمية الفترة التي تمتدّ من القرن الخامس، أو تحديدًا من سقوط الامبراطوريَّة الرومانيَّة الغربيَّة حتى وقتهم. وإنْ لم يكن هناك اتفاقًا بين المفكِّرين على بداية فترة العصور الوسطى الغربيَّة وانتهائها[1].

يمكن وصف العصور الوسطى بأنَّها مرحلة سادت فيها الفوضى السياسيَّة والحروب، كما اتَّسمت بأنَّها فترة صراع بين رجال الدين المسيحي والملوك، وبين محاولة الامبراطوريَّة السيطرة على الكنيسة ورجالها من ناحية، وبين محاولة الكنيسة التحرُّر من هذه السيطرة من ناحية، ومحاولاتهم التدخُّل والسيطرة على الشؤون السياسيَّة من ناحية أخرى، وإنْ اتَّسم فيها كثير من الملوك في عهود مختلفة بصفات التسامح والعدل. فلقد زادت على سبيل المثال نفوذ البابويَّة في إيطاليا في القرن السابع الميلادي استغلالاً للفوضى السياسيَّة والاجتماعيَّة السائدة، واتَّخذت صبغة عالميَّة في عهد البابا (جريجوري الأول-Gregory I) المولود ٥٤٠م، الذي اتَّصف بالتواضع والإحسان إلى الفقراء، وكان ينهى الملوك والأساقفة عن الفساد ويأمرهم بالخير[2]. ومدَّ نفوذ البابويَّة إلى إسبانيا، وبريطانيا، وإفريقيا، ثمَّ حدث نوع من التنافس، بل التصادم بينه وبين الأباطرة، ثمَّ ساءت العلاقات بين روما والقسطنطينيَّة في عهد البابا (جريجوري الثاني-Gregory II) (٧١٥م – ٧٣١م)، كذلك كان يحدث بينهما أحيانًا تحالف، مثلما حدث بين البابويَّة والفرنجة في إيطاليا في القرن الثامن.

أمَّا الفوضى التي عمَّت أوروبا في القرن العاشر، فقد ظهرت أوضح ما ظهرت في إيطاليا؛ حيث تعاقب على كرسي البابويَّة سلسلة من البابوات الضعاف غير الأكفاء، الذين تولَّوا مناصبهم من خلال مؤامرات دبَّرها نبلاء روما العابثين[3].

وإذا كانت الكنيسة قد أخذت تسعى خلال سنوات الفوضى التي عمَّت أوروبا خلال القرن التاسع للتحرُّر من سلطان الدولة، ليكون لها كيان خاصّ بها، لكنَّ الفصل بين الكنيسة والدولة

1 - J. Barzun & N. Parker: The Middle Ages.

٢ - سعيد عبد الفتاح عاشور: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص ١١٧.

٣ - سعيد عبد الفتاح عاشور: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص٢٥٩.

بدا أمرًا غير عملي في ظلّ النظام الاقطاعي، هذا في الوقت الذي لم تجد البابويَّة أمامها سابقة تستند إليها في تأكيد سيادتها على الملوك، وعلى بقيَّة رجال الكنيسة. هنا لجأ رجال الكنيسة إلى التزوير والتزييف، لاختلاق سوابق تستند إليها في تحقيق أهدافها[1].

فرغم فساد الكنيسة الكاثوليكيَّة في العصور الوسطى، التي كانت تزعم إمكانيَّة بيع صكوك الغفران، وتزعم أنَّها تقدِّم الإعفاء من العقوبة الزمنيَّة للخطايا لمشتريها، لكن لا يمكن إنكار تأثير القِيَم الدينيَّة وانتشارها بين الناس، التي حاولت المسيحيَّة نشرها، مثل قِيَم الحبّ والمساواة والعدل. كذلك انتشر ما عُرِف في ذلك الوقت بقِيَم الفروسيَّة التي نشأت في ظلّ النظام الإقطاعي، الذي كان سائدًا مثل الشرف، والشجاعة، وحماية الضعفاء، واحترام المرأة وتوقيرها، وإنْ كان الفرسان لم يمارسوا هذه القِيَم إلا فيما بينهم، بينما عاملوا الطبقات الدنيا في المجتمع باحتقار وازدراء، كما حاولت المسيحيَّة احتضان الفروسيَّة بحكم مطالبتها ببسط حمايتها على وجوه النشاط البشري كلّه[2].

ثامنًا: العصور الحديثة وموت الإنسان

ثم تأتي العصور الحديثة، ويموت الإنسان على يد الحضارة الغربيَّة: الحضارة التي تشدقت بإعلانها مبادئ الحريَّة والمساواة، وجعل مَهمَّتها تحقيقها، ورفع مستوى رفاهيَّة الإنسان. ولمَّا كان من المفترض أنْ تصل الإنسانيَّة مع هذه الحضارة إلى قِمَّة الرقي الإنساني، فقد انتهى حالها - أو قل أوشك على الانتهاء- بفقدان الإنسان لقِيَمه الإنسانيَّة العُليا التي كانت تميّزه بصفته إنسانًا، ويحلّ محلّها قِيَم السوق، والمصلحة، والعقلانيَّة الأداتيَّة....

يمكن إرجاع بداية رحلة الغرب نحو الحداثة إلى اكتشاف المدرسيّون المتأخِّرون في المرحلة الإنسانيَّة من عصر النهضة (١٤٥٣-١٦٠٠) أنَّ العقل البشري قادر بذاته على أنْ يدافع عن قليل من معتقدات الكنيسة. وبالتالي فلمَّا كان بإمكان العقل ذلك، فهذا لا يعني إلا أنْ للعقل قوَّة البحث عن الحقيقة في شتَّى الميادين. عزَّزت هذه النزعة العقليَّة الاكتشافات العلميَّة

١ - سعيد عبد الفتاح عاشور: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص٢٩٤.
٢ - ٢٢ نورا ابراهيم الدينالي: "طبقة الفرسان والفروسيَّة في أوربا العصور الوسطى في ظل النظام الاقطاعي".

التــي أدَّت إلى تغيير صورة العــالم الطبيعي من نموذج مغلق لعالم مركــزه الأرض، إلى نموذج ثوري للعالم مركزه الشــمس، وذلك بدءًا من (نيكولاس كوبرنيقوس-Nicolaus Copernicus) (١٤٧٣ – ١٥٤٣). تنامــى الفهم والاعتقاد من وقتهــا بأنَّ مناهج العلم الطبيعي هي مفتاح فهم الواقــع والوجود. فبدأ ما عُرف في تاريخ الفلســفة بفترة العلم الطبيعي، تلك التي تمثِّل إنجازها الأوَّل في صياغة مناهج جديدة للبحث الفلســفي على يد كلّ من (بيكون-Bacon) و(ديكارت-Descartes). ثمَّ تتوالى الإنجازات الفلسفيَّة التي تأثَّرت بهذا الفهم والاحترام لاستقلاليَّة العقل البشري، والثقة في قدراته بعيدًا عن التفسيرات الدينيَّة. لقد رأى كلّ من (بيكون) و(ديكارت) أنَّه بمعرفتنا كيف يسير العالم الفيزيقي، سنصبح سادة الطبيعة ومالكيها، والمتحكِّمين فيها. عندئذ يمكننا بالاكتشــافات والاختراعات في ميــدان الزراعة أنْ نتغلَّب على الجــوع، وبتطوير الطب نقضي على الأمراض، أي أنَّنا في المجمل سوف نطوِّر من جودة حياة الإنسان من خلال التطوّر التكنولوجي[1]. وهكذا بدأت نواة مرحلة التنوير بالاكتشافات العلميَّة التي أدَّت إلى تغيير صورة العالم الطبيعي، وبالمناهج الجديدة للبحث الفلسفي والمذاهب الفلسفيَّة- التي تمكَّنت الفلسفة بها من التخلّص من تبعيتها للاهوت والتفســيرات الدينيَّة، لتصبح قوَّة مســتقلَّة تستطيع أنْ تبني بها ما هو جديد اعتمادًا على مبادئها الخاصَّة. أضف إلى ذلك انتشــار أفكار الإخاء، والمساواة، والحُريَّة التي حمل لواءها فلاسفة السياسة في ذلك الوقت، والتي يرى بعضهم أنَّها الوقود الذي أدَّى إلى اندلاع الثــورات الثلاث: الثورة الانجليزيَّة ١٦٨٨، والثورة الأمريكيَّة ١٧٧٥ – ٨٣، ثمَّ الثورة الفرنسيَّة ٨٩ – ٩٩.

وإذا كان التنوير يرتبط عادة باسم الفيلسوف الألماني (إيمانويل كانط-Immanuel Kant)، فإنَّ هذا لا يعني أنَّ مرحلة التنوير بدأت معه. كلّ ما هناك أنَّه اشــتهر فقط بتعريفه للتنوير. يُعرّف الفيلســوف الألماني (إيمانويل كانط) التنوير بأنَّه التحرُّر البــشري من عدم النضج، حيث عدم النضــج هنا هو عدم القدرة على الاعتماد الذاتي على فهــم دون معاونة الآخرين. يحدّد (كانط) التنوير بأنَّه قدرة المرء على التفكير لذاته بذاته، والاعتماد على قدراته العقليَّة في تحديد ما يؤمن

1 - T. Burnett: What is Scientism. In Dialogue on Science, Ethics and Religion.

به، وكيف يسلك تجاهه. وهكذا بدأت سيادة فكرة أنَّ القوى العقليَّة فقط هي ما يمكن أنْ تقدِّم لنا معرفة بالعالم الطبيعي، وهي فقط ما يمثِّل السلطة المرشدة لنا في حياتنا العمليَّة.

ولكن هل استطاعت الحداثة أنْ تفي بما وعدت به: أنْ تحقِّق مبادئ الحريَّة والعدالة والمساواة، وأنْ تقدّم لنا تفسيرًا للكون يعتمد على العقل فقط؟

يمكننا سريعًا القول إنَّ الحداثة لم تحقِّق لا هذا ولا ذاك؛ إذ سرعان ما ثبت صعوبة تحقيق قيمة اليقين المعرفي التي كانت إحدى قِيَم الحداثة وفشلها في فهم الواقع عن طريق الاعتماد على العلم والعقل بصفة مطلقة، وظهرت خطابات مضادَّة تنادي برفض خطاب الحداثة المتمثّل في الإيمان المطلق بالعقلانيَّة الشموليَّة[1].

أما مبادئ الحريَّة والعدالة والمساواة فلم تتحقَّق؛ إذ سرعان ما سار الغرب في طريق الرأسماليَّة التي أصبح جلّ هَمَّها تراكم الثروات، فسار الغرب- من أجل تحقيق ذلك- في طريق استعمار الشعوب ونهب ثرواتهم، فبدأ بالعالم الجديد في الأمريكتين وفي أستراليا، وانتهاء بدول في آسيا وأفريقيا، مقدِّمًا بذلك دلائل وشواهد على تناقضات الحداثة، التي وعدت بالمساواة والعدالة، وعلى تعامل الغرب مع بقيَّة الشعوب على أنَّهم عبيد. أمَّا في الداخل (أي على مستوى الدولة)، فقد زاد التباعد بين الفقراء والأغنياء، وثارت كثير من الشعوب ضدّ الديموقراطيَّة، لتظهر الشعبويَّة.

ظهرت الرأسماليَّة وفقًا لأغلب التفسيرات على يد (آدم سميث-Adam Smith) (١٧٢٣ - ١٧٩٠)، وإنْ كان تاريخها متشعِّب ومتنوِّع الجذور. قدَّم (آدم سميث) أفكار الرأسماليَّة الأساس في كتابه "بحث في طبيعة ثروة الأمم وأسبابها" ١٧٧٦ An Inquiry into the Nature and Causes of the Nations Wealth.. يعرف هذا الكتاب ا ختصارًا بـ "ثروة الأمم"، كان يقصد من ورائه الدفاع عن إلغاء التدخّل الحكومي في الشؤون الاقتصاديَّة، ورفع القيود عن عمليَّة التصنيع، ورفع الحواجز على التعريفات الجمركيَّة، ورأى أنَّ التجارة الحُرَّة هي أفضل وسيلة للنهوض باقتصاد دولة ما.

لذا، فإنَّ المصدر الأول لثروة الأُمَّة ليس الأرض، وإنَّما العمل؛ عمل الأفراد الذي يزوّدهم

١ - إيهاب حسن: ما بعد الحداثة: إبهام المصطلح وغموض الدلالة، ص٣.

بالحاجات الضروريَّة والكماليَّة التي يستهلكونها، سواء أكانت مما ينتجونه بأنفسهم أم ما يتبادلونه مع منتجات الأمم الأخرى، فالعمل "هو المقياس الشامل والدقيق للقيمة، أو المعيار الوحيد الذي يمكننا بواسطته مقارنة قِيَم مختلف السلع في كل الأزمنة والأمكنة"[١]. وتزداد ثروة الأُمَّة كلّما ازداد العمل، ولا سبيل لزيادة العمل إلا بالتخصّص وتقسيم العمل[٢]. يقول: «إنَّ التزايد الكبير لمنتجات الصنائع كلّها على اختلافها، جراء تقسيم العمل، هو الذي يمنح المجتمعات المدبّرة، تلك الثروة العامّة التي تنتشر لتبلغ أدنى الناس مرتبة»[٣]، كما تزداد ثروة الأمّة بتطوير أدوات الانتاج وآلاته ومهارات العمال[٤]، وفي حالة زيادة عدد السكان المستهلكين، لابد أنْ يزيد عدد العمّال المنتجين، وهذا بالطبع يتطلّب زيادة رؤوس الأموال المستثمرة. وهكذا، تُقاس ثروة كلّ أمّة بإنتاجيتها، وربط الإنتاجيَّة بتقسيم العمل.

ورأى (سميث) أنَّ أهم قوَّة تنمّي الثروة هى غريزة المصلحة الشخصيَّة، التى تدفع الفرد إلى تحسين أحواله، وبالتالي تتكوَّن ثروة المجتمع من مجموع تحقيق هذه المصالح الشخصيَّة للأفراد، حتى دون أنْ يكونوا قد قصدوا أساسًا إليها. وهكذا، فإنَّ النظام الاقتصادي عند (آدم سميث) يقوم على النظام الطبيعي الذي تحكمه تلك الغرائز الشخصيَّة.

قد أوضح ذلك عندما ابتكر مبدأ اليد الخفيَّة Invisible hand ؛ حيث يقول، إنَّ الفرد الذي يقوم بالاهتمام بمصلحته الشخصيَّة، يسهم أيضًا في ارتقاء المصلحة الخيّرة لمجتمعه كلّه؛ حيث يشرح بأنَّ العائد العام للمجتمع هو مجموع عوائد الأفراد. إذًا، عندما يزيد فرد ما عائده الشخصي، فإنَّه يساهم في زيادة مجموع العائد للمجتمع[٥].

وقد لاحظ سميث نفسه احتماليَّة حدوث تدهور فكري واغتراب نتيجة التقسيم المفرط للعمل، وعدم المساواة المُدمّرة الناجمة عن السعي وراء الثروة، ونشوء احتكارات الشركات

١ - آدم سميث: ثروة الأمم، ص٥٤.
٢ - آدم سميث: ثروة الأمم، ص١١-١٤.
٣ - آدم سميث: ثروة الأمم، ص٢٠.
٤ - آدم سميث: ثروة الأمم، ص١٦.
٥ - شيماء جابر: ثروة الأمم.. قراءة اقتصاديَّة في أفكار أبو الاقتصاد (آدم سميث)، مركز الروابط للبحوث والدراسات الاستراتيجيَّة.

التي تُخنق المنافسة وتُضرّ بالجمهور. كان (سميث) نفسه مُدركًا لهذه القضايا، ومُدركًا لاحتماليَّة فساد المجتمع بسبب عبادة الثروة، والآثار السلبيَّة للمصلحة الذاتيَّة المُفرطة، حتى مع دعوته إلى الأسـواق الحُرَّة. كما حذَّر (سـميث) من أنَّ التركيز المجتمعي على تجميع الثروة قد يؤدِّي إلى إفساد المشاعر الخُلُقيَّة، ما يدفع الناس إلى تقدير العلامات الخارجيَّة للنجاح على الفضيلة[1].

وإنْ كان هناك من يدافع عن نظريَّة (سميث) اعتمادًا على تفسيره لنصوص من كتابي (سميث) «نظريَّة المشـاعر الخُلُقيَّة» و«ثروة الأمم»، لمعالجة التفسـيرات الخاطئة لمفهوم (آدم سميث) الأساس عن المصلحة الذاتيَّة، باعتبارها جشعًا له تأثير مُدمِّر على الأسواق والسلوك التجاريّين، وتفاقـم التفاوت. عـلى العكس من ذلك، يُجـادل بأنَّ مجموعـة الدوافع البشريَّـة المعقّدة لـ (سميث)، بما في ذلك المصلحة الذاتيَّة، ونظامه الاقتصادي القائم على الأسواق الحُرّة، والأطر المؤسَّسيَّة التي تحكم حقوق الملكيَّة الإنتاجيَّة وسيادة القانون، تُسهم في زيادة الثروة الإجماليَّة، وتحسين وضع الأقل حظًّا، والحفاظ على النظام الاجتماعي الخُلُقي[2].

ولكن من الثابت أنَّ الرأسـماليَّة اسـتفحلت، فأصبحت ترى أنَّنا في هذا العالم لكي نستهلك ونستغلّ ونُستَغلّ. فالعالم العادل عالم خيالي لا وجود له، وهناك دائمًا سمكة أكبر للصيد. تأكد من أنَّك لست الأصغر وأنت تتعهَّد بالولاء لشخص كبير بما يكفي لاستغلالك تحت حمايته. إنَّ القيمة في الرأسماليَّة تنشأ من خلال القدرة على الاستغلال، قبل أن يجري استغلالك.

من الواضح- إذًا- أنَّ الرأسـماليَّة تعتمد على الاستغلال، وبالتالي فقد وُصِفت بأنَّها نظام غير خُلُقـي؛ إذ على النقيض من الادّعاءات القائلـة إنَّ الطبقة الاجتماعيَّة أصبحت الآن مفهومًا عفا عليه الزمن، تشـير الأدلَّة إلى أنَّ الانقسـام الطبقي آخذ في النمو بالفعل؛ حيث تمتلك أعلى ١٪ مـن الأسر في بريطانيـا ثروة تزيد ٢٠٠ مرّة عن تلك الموجـودة في أدنى ١٠٪ من الأسر. وهذا لا ينطبق على بريطانيا فحسـب؛ إذ وفقًا لقاعدة بيانات التفاوت العالميَّة (٢٠٢٢)، يحتكر أغنى

1 - F. Naz & D. Bogenhold: From pursuit of self-interest to pursuit of happiness: Complementary or contradictory readings of “wealth of nations” and “theory of moral sentiments”? Vo.42, Issue 6.

2 - M. Arevuo: Adam Smith’s moral foundations of self-interest and ethical social order.

١٠٪ من سكّان العالم أكثر من ٧٥٪ من إجمالي الثروة، ما يدفع بأكثر من ٧٠٠ مليون شخص إلى براثن الفقر المدقع (البنك الدولي، ٢٠٢٣). إنَّ التفاوت والفقر ليسا من نتائج الرأسماليَّة، بل هما جزء لا يتجزَّأ من النظام، فكما جادل (ماركس-Marx)، لا يمكن للبرجوازيَّة جمع الثروة إلا من خلال دفع أجور زهيدة للعمَّال وجني فائض القيمة. فلم ترسّخ الرأسماليَّة فكرة هيمنة الطبقات فحسب، ولكن رسَّخت الدولة أيضًا- من حيث كونها جهة رئيسة للتنظيم الخُلُقي- فكرة أنَّ الفقراء "كسالى"، وغير مسؤولين، بينما النخبة أذكياء ومجتهدون، لإثارة استنكار خُلُقي يُعزّز الانقسامات ويديمها داخل الطبقات الاجتماعيَّة، وفيما بينها".

ذهبت رئيسة الوزراء البريطانيَّة السابقة، (مارغريت تاتشر-Margaret Thatcher)، إلى أنَّ الفقر «عيبٌ جوهريٌّ في الشخصيَّة»؛ إذ لا يعرف الناس كيفيَّة وضع ميزانيّاتهم، ولا يعرفون كيفيَّة إنفاق دخلهم. بوضع آراء كهذه في السياق الأوسع للبناء الاجتماعي للمعرفة، نفهم كيف تُخلق وتُعزّز أيديولوجيّات مهيمنة كهذه عمدًا، للحفاظ على النظام الاجتماعي، وإعادة إنتاجه، وترسّخ الاعتقاد بأنَّ الفقر ناتجٌ عن «قلّة الجهد»، و«انحلال الأخلاق»؛ لأنّ هذا الاعتقاد يُبرّر الفقر ونظام الطبقات الاجتماعيَّة[1].

غالبًا ما يُنظر للسلوك الملتزم بالقانون على أنَّه مرادف للسلوك الخُلُقي. ولكن من الذي يحدّد القانون؟ ليست القوانين «حدودًا خُلُقيَّة مُنتجة جماعيًّا» كما يقول (دوركهايم-Durkheim)، بل إنَّ هذه الحدود الخُلُقية تُنشئها الطبقة الحاكمة، للحفاظ على مكانتها في السلطة والسيطرة. قد يُفسَّر هذا قلّة القوانين التي تُعارض مصالح النخب؛ فمعظمها يتعلّق بحماية الملكيَّة الخاصّة، مع قلّة قليلة من القوانين التي تُعارض بشكل جوهري التفاوت المالي، أو تُنظّم الأعمال التجاريَّة. علاوة على ذلك، إذا حاولنا تطبيق نهج الضرر الاجتماعي، فسنجد أنَّ الضرر الذي تُسبّبه الحكومات والشركات أكبر بكثير من أيّ ضرر تُسبّبه أفعال إجراميَّة فرديَّة.

على سبيل المثال، إذا نظرنا إلى الضرر البيئي، نجد أنَّ ١٠٠ شركة فقط مسؤولة عن أكثر من ٧٠٪ من انبعاثات غازات الاحتباس الحراري القاتلة، على الرغم من أنَّ الاستهلاك الفردي غالبًا

1 - S. Esat: "A Capitalist Morality: How Capitalism is Influencing our Ethics (for the Worse)", Essex Student Journal 15(S1).

ما يُلام على الاحتباس الحراري. نادرًا مـا تواجه الشركات اتهامات جنائيَّة أو أي عواقب أخرى لتأثيرها الضارّ على الكوكب. على سبيل المثال، قامت شركة «شل» Shell (ثاني أكبر شركة نفط عالميًـا) بتلويث إمدادات المياه عمدًا، وتواطـأت في تعذيب وقتل متظاهرين من أجل المناخ، لكنَّها لم تواجه أي عواقب أو تدقيق خُلُقي من الحكومة[1].

في المقابل، واجه متظاهرو حملة «أوقفوا النفط فقط» اتّهامات جنائيَّة لإلقائهم علبة حسـاء على لوحة لـ (فان جوخ-Van Gogh) وتلقّوا استنكارًا خُلُقيّا كبيرًا؛ حيث أشارت صحيفة «ديلي ميل» إلى تصرّفات النشـطاء بأنَّها «حملة فوضى لا هـوادة فيها». من المهمّ ملاحظة أنّ صحيفة «ديـلي ميل» مملوكة لـ (جوناثان هارمسـورث-Jonathan Harmsworth)، وهو ملياردير لديه مصالح تجعل تطبيق السياسات البيئيَّة يحدّ من ربحيَّة الشركة. ردت الدولة على احتجاج «أوقفوا النفط فقط» باسـتنكار خُلُقي وزيادة في صلاحيّات الشرطـة. من الصعب إنكار النفاق الخُلُقي والمعايير المزدوجة للحكومات الرأسماليَّة، مع التطبيق الانتقائي للقوانين.

إذا تأمّلنا القِيَم التي تشجعها الرأسماليَّة - وهي التنافسيَّة والفرديَّة- نجد أنَّها تقلّل من قيمة الحياة البشريَّة، فمن خلال طبيعة الرأسماليَّة المُنفِّرة. وكما عبرّ (ماركس)، فإنَّ الرأسماليَّة نظام «يكون فيه الإنسان كائنًا مُهانًا، ومُستعبدًا، ومُهمَلاً، ومُحتقرًا». بل قد أصبحت العواطف والمشاعر سلعًا في نظام سائد، لا يسعى إلا لزيادة الأرباح الماديَّة.

تُولّد الرأسماليَّة الفردانيَّة، مُشجِّعةً الناس على إعطاء الأولويَّة لمصالحهم الذاتيَّة على المصالح الجماعيَّة. وغالبًا ما تكون الحوافز الاقتصاديَّة محور هذه المصلحة الذاتيَّة؛ إذ يُحثّ الأفراد على الطموح إلى الثروة، حتى لو كان ذلك على حساب الآخرين. ولا شكّ أنَّ هذا يؤدي إلى الأنانيَّة والـلا مبالاة. ولكن كيف يؤثّر هـذا على الأخلاق؟ فبإعطاء الأولويَّة لرفاهيَّـة الفرد على رفاهيَّة الآخرين، يُصبح من الأسـهل بكثير غضّ الطرف عن الظلم الـذي يواجهه الآخرون. ولعلّ هذا يُفسّر إعطاء الأولويَّة تاريخيًا لـ«الراحة على العدالة» و«الربح على الناس» في الغرب.

مضافًا إلى كلّ ما سـبق، فلننظر إلى الإبادة الجماعيَّة المستمرة للفلسطينيين في غزّة والضفة

1 - S. Esat: "A Capitalist Morality: How Capitalism is Influencing our Ethics (for the Worse)", Essex Student Journal 15(S1).

الغربيَّة التي تحدث هذه الأيام؛ فقد قُتل أكثر من ٤٥٠٠٠ فلسطيني في غزَّة منذ أكتوبر ٢٠٢٣ (AJLabs، ٢٠٢٥) - ومع ذلك، يتجاهل كثيرون في الغرب الأزمة، ربما لأنَّ النضال من أجل العدالة لا يحقّق أي فائدة اقتصاديَّة للفرد. ومن ناحية أخرى، فإنَّ إظهار الدعم للفلسطينيين قد يؤثّر في الواقع على سبل عيش الفرد ووضعه الاقتصادي - لأنَّه يتعارض مع المصالح الاقتصاديَّة وخُلُقيّات الدولة. عندما أعرب رئيس الوزراء البريطاني، (ريشي سوناك-Rishi Sunak)، عن دعمه لإسرائيل «ليس فقط اليوم، وليس فقط غدًا، ولكن دائمًا»، فإنَّ التعبير عن الدعم لفلسطين يمكن أنْ يؤدّي إلى عقوبة، مثل الفصل من الوظيفة. يشير هذا إلى أنَّه حتى لو تخلّى المرء عن هذا النمط الفردي، مُعطيًا العدالة أولويَّة على مصلحته الشخصيَّة، فإنّ وضعه الاجتماعي والاقتصادي قد يُصعّب عليه عيش ما يُشير إليه تفكيره الفلسفي، بأنّه حياة خُلُقية كاملة؛ إذ قد يواجه عواقب اقتصاديَّة. من الواضح أنَّه لا يوجد خيار حقيقي في خُلُقيّات المرء الشخصيَّة والخاصة، حتى هذه الخُلُقيّات خاضعة لسيطرة الدولة.

خاتمة

في ظلّ الرأسماليَّة، عادةً ما تُميّز الأخلاق مصالح النخبة، مُتجاهلةً عمدًا الضرر الجماعي الذي تُسبّبه الرأسماليَّة. فالرأسماليَّة استغلاليَّة بنيويًّا بطبيعتها؛ إذ تُنشئ أحكامًا خُلُقيَّة تُحافظ على التسلسل الهرمي الطبقي الاجتماعي. تُصبح هذه الأحكام الخُلُقيَّة «منطقًا سليمًا» لدى العامّة من خلال التنشئة الاجتماعيَّة والأطر القانونيَّة (التي تُفضّل الملكيَّة الخاصة). ونتيجةً لذلك، يُجبر أفراد المجتمع بشكل منهجي على التصرّف بطريقة فرديَّة، ما يُميل إلى تجاهل الظلم الجماعي، كالقضايا البيئيَّة والإبادة الجماعيَّة[1].

حوَّل النظام الرأسمالي الحداثة، من حداثة واعدة بالانطلاق والتجدّد الخلَّاق والحُريَّة الفرديَّة والعقلانيَّة إلى حداثة طامعة، يموت فيها الانسان على أصداء تراكم الثروة والقوّة، فيعاد إنتاج أزمة

1 - S. Esat: "A Capitalist Morality: How Capitalism is Influencing our Ethics (for the Worse)", Essex Student Journal 15(S1).

التفاوت الطبقي وعدم العدالة، ويعاد إنتاج التباعد بين الفقراء والأغنياء (على مستوى الفروق بين الدول وداخل الدولة الواحدة). لقد تحوَّل العقل، من عقل يسعد الإنسان إلى عقل يقتل الإنسان، ويسجنه داخل قفص من حديد أو يقتل قدراته الإبداعيَّة[١].

ثمّ تظهر الشعبويَّة بصورها المختلفة باعتبارها أحد مظاهر أزمة الرأسماليَّة. تمثّلها الفاشيَّة والنازيَّة أفضل تمثيل. ظهرت بواكير النزعات الفاشيَّة في أوروبا فيما بعد الحرب العالميَّة الأولى، ووصلت إلى أوج ذروتها في نهاية ثلاثينيات القرن العشرين، واتَّخذت صورتها الأساس الأولى في إيطاليا، ولكنَّها سرعان ما انتشرت في أوروبا، فانتشرت في إيطاليا مرتبطة بالحزب القومي الفاشي، وجبهة الأرض الأم التي قادها (إنغلبرت دولفوس-Engelbert Dollfuss) في النمسا، والاتحاد الوطني بقيادة (أنطونيو سالازار- António de Oliveira Salazar) في البرتغال، وحزب أصحاب العقيدة الأحرار بقيادة (إيوانيس متاكساس-Ioannis Metaxas) في اليونان، وحزب التمرد بقيادة (أنتي بافيليتش-Ante Pavelić) في كرواتيا، والاتحاد القومي في النرويج بقيادة (فيدكون كفيشلينغ-Vidkun Quisling)، والحركة الفاشيَّة في إسبانيا التي أسّسها (جوزيه أنطونيو- José Antonio) ١٩٣٣، التي انضوى معظم أعضائها تحت حكم (فرانكو- Franco) فيما بعد. تتفق هذه النزعات مختلفة الأسماء في رؤية وجوديَّة واحدة، وتشترك في أهداف وخصائص واحدة[٢].

تشترك النزعات الفاشيَّة في رفض كلّ النزعات اليساريَّة؛ ذلك أنَّ الفاشيَّة نزعة ذات توجّه نخبوي طبقي، في مقابل الاشتراكيَّة التي تدعو إلى المساواة المطلقة. كما يتّجه الفكر الفاشي إلى العداء الصريح لأيّ نزعات ليبراليَّة (ثقافيَّة كانت أم سياسيَّة)؛ لأنّ الليبراليَّة تضع مصلحة الفرد وحقوقه السياسيَّة والاجتماعيَّة فوق كلّ شيء. كذلك يقف الفكر الفاشي ضدّ أيّ شكل من أشكال التعدّديَّة السياسيَّة والثقافيَّة. فالتعدّديَّة، وفقًا لهم، تقسّم الشعب إلى فئات، وتنشر قِيَم التسامح البالية، وتقوّض من قوّة الدولة. فالسيطرة الشموليَّة واجبة عن طريق قوّة الدولة وهيمنتها، التي

١ - أحمد زايد: «الشعبويات في الزمن الحديث للدولة الأوربيَّة: نماذج الفاشيات»، ص٩٨؛ راجع: بهاء درويش: «العالم العربي الإسلامي بين علوم اجتماعيَّة غربيَّة قاصرة وعلوم اجتماعيَّة عربيَّة غائبة» ص٣٦.

٢ - أحمد زايد: «الشعبويات في الزمن الحديث للدولة الأوربيَّة: نماذج الفاشيات»، ص٩٢.

يجب أن تهيمن على كلّ مؤسسات المجتمع، بما في ذلك المؤسّسات الثقافيَّة والدينيَّة. امتلاك الدولة للقوّة يعني نزعة عسكريَّة تسيطر على العقل الفاشي، تتجلّى في إيمانهم بالنظام والطاعة العمياء والشجاعة. دفعت هذه النزعة العسكريَّة- بما يقف خلفها من شعور بالتفوق والقوة- إلى الجـرأة على احتلال الدول الأخرى، ودحر الشـعوب في نزعة إمبرياليَّـة واضحة. وقد ارتبطت النزعة الإمبرياليَّة لدى الفاشـيين بقدر كبير من النظر إلى الشعوب الأخرى على أنّها شعوب من العبيـد. وفي ضوء هذه النزعة اتَّجهت أنظار (موسـوليني-Mussolini) نحـو أفريقيا، واحتلت قوّاته أثيوبيا ١٩٣٥. لقد أدّت النزعة الإمبرياليَّة للفاشـيَّة إلى حرب عالميَّة كبرى، راح ضحيّتها ملايين البشر، وأدخلت العالم في صراع دموي لأكثر من سـت سنوات. على هذا النحو أدخلت الفاشـيَّة أوربا- التي كانت بالكاد قد خرجت من الحـرب العالميَّة الأولى- في أتون الحرب من جديد في الحرب العالميَّة الثانية لتخلف من ورائها ست مليون قتيلاً، ورعب وذعر ونزعة معاداة الساميَّة. نعم، انتبه العالم بعد الحرب إلى أهميَّة السلام، فأنشأ منظمة الأمم المتحدة ومنظماتها الفرعيَّة، ولكن ظلّت الحرب أساسًـا في الأداء الرأسـمالي، وعمليَّة إنتاج السلاح والاتجار فيه عبر العالم أحد أدوات تحقيق أهداف الرأسماليَّة والسيطرة الإمبرياليَّة. كذلك أحيت الفاشيَّة مرّة أخرى روح الطغيان الإمبراطوري بتعميقها الافتراض بالتفوق الغربي على سـائر شعوب العالم، وهيمنته على العالم بأسره. فإذا كانت الفاشـيَّة قد انتهت، فقد تركت الزمن الحديث مثقلاً بنزعة كبيرة نحو الهيمنة، وتطوير أدوات الاسـتعمار الجديد للسيطرة على الشعوب الضعيفة، محدثة بذلك شرخًا في جدار منظومة الحداثة وقيمها ووعدها بالحريَّة والديموقراطيَّة والسـلام. لذلك نجد هذه النزعات الفاشيَّة بدأت تظهر في الدول الغربيَّة من جديد متمثّلة في أحزاب وتنظيمات، بل بات هذا الفكر أحد العناصر الفاعلة في تشـكيل الخطاب الانتخابي والتنافس السياسي في فرنسا وألمانيا وإنجلترا، وطوّرت هذه النزعات توجّهات عدائيَّة ضدّ المهاجرين من مجتمعات أخرى[١].

وهكذا تحوّل الإنسان في ظلّ الحضارة الغربيَّة الحديثة التي سادت قِيَمها العالم المعاصر إلى

١ - المرجع السابق، ص ٩٣ - ١٠١، عن بهاء درويش المرجع السابق ص ٣٨

كائن تحرّكه قِيَم المصلحة والسوق والاستغلال؛ حيث الأولويَّة للفائدة الاقتصاديَّة للفرد، قيمة تعلو أي قيمة أخرى. والمصالح الاقتصاديَّة للدولة أكثر أهمّيَّة من مناصرتها لأيّ مبادئ إنسانيَّة أخرى، وهو ما أدَّى لسيادة نزعات الهيمنة الاقتصاديَّة والسياسيَّة والعسكريَّة، لتبرّر للإنسان استعمار أخيه الإنسان، بل واستعباده وقتله في ظلّ صمت يعزّزه الخوف على المصالح، وقبول الاستعباد والاستغلال باعتبارهما قيمتان من قِيَم الرأسماليَّة.

المصادر المراجع

أوَّلًا المراجع العربيَّة

- أحمد زايد: «الشعبويات في الزمن الحديثة للدولة الأوربيَّة: نماذج الفاشيات»، مجلة تفاهم، العدد ٦٥، صيف ٢٠١٩.
- آدم سـميث: ثروة الأمم، ترجمة: حسني زينة، معهد الدراسات الاستراتيجيَّة، بغداد، أربيل، بيروت ٢٠٠٧.
- إيهاب حسن: ما بعد الحداثة: إبهام المصطلح وغموض الدلالة، ترجمة: بدر الدين مصطفى، مؤمنون بلا حدود، ص٣
- www.mominoun.com/pdf102-2016//hadatta.pdf
- بهاء درويش: رؤى فكريَّة وفلسفيَّة لمسائل معاصرة، الاسكندريَّة، دار الوفاء، ٢٠٢٤
- جورج سباين: تطوُّر الفكر السياسي، ترجمة: حسن جلال العروسي.
- جون كولر: الفكر الشرقي القديم، ترجمة: كامل يوسـف حسـين، الكويت، سلسـلة عالم المعرفة، ١٩٩، يوليو ١٩٩٥.
- سعيد عبد الفتاح عاشـور: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، دار النهضة العربيَّة، بيروت، ١٩٧٦.
- شوقي ضيف: العصر الجاهلي، دار المعارف، مصر، ط١١، ١٩٦٠.
- شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي- العصر الإسلامي، ط١١، دار المعارف، مصر.
- شيماء جابر: ثروة الأمم.. قراءة اقتصاديَّة في أفكار أبو الاقتصاد (آدم سميث)، مركز الروابط للبحوث والدراسات الاستراتيجيَّة، ٢٣ أغسطس ٢٠١٥.
- https://rawabetcenter.com/archives/11402#:~:text=%D9%88%D98%A%D8%B1%D920%89%D8%A3%D920%86%D8%A3%D987%D920%85%D982%D988%D8%A920%D8%AA%D986%D985%D98%A,%D8%A7%D984%-%

D8%B0%D98%A%20%D8%AA%D8%AD%D983%%D985%%D920%87%%D8%AA%D984%%D920%%83%D8%A7%D984%%D8%BA%D8%B1%D8%A7%D8%A6%D8%B220%%D8%A7%D984%%D8%B4%D8%AE%D8%B5%D98%A%D8%A9

- نورا ابراهيم الدينالي: «طبقة الفرسـان والفروسـيَّة في أوربا العصور الوسطى في ظل النظام الاقطاعي»، مجلة العلوم الإنسانيَّة والطبيعيَّة. ١ - ٢ –
- https://www.hnjournal.net/ar/326-2-/#post-2923-footnote-23 2022

ثانيًا: المراجع الأجنبيَّة

- M. Arevuo: Adam Smith's moral foundations of self-interest and ethical social order. Wiley. Online Library. https://onlinelibrary.wiley.com/doi/10.1111/ecaf.12592#:~:text=Using%20textual%20evidence%20from%20TMS,of%20inequality%20on%20human%20morality.
- J. Barzun & N. Parker: The Middle Ages. Britannica. https://www.britannica.com/topic/history-of-Europe/The-Middle-Ages
- C. Brooks: The Archaic Age and Greek Values. Portland Community College. https://human.libretexts.org/Bookshelves/History/World_History/Western_Civilization_-_A_Concise_History_I_(Brooks)/053%A_The_Archaic_Age_of_Greece/5.023%A_The_Archaic_Age_and_Greek_Values
- T. Burnett: What is Scientism. In Dialogue on Science, Ethics and Religion. https://sciencereligiondialogue.org/resources/what-is-scientism/
- S. Esat: "A Capitalist Morality: How Capitalism is Influencing our Ethics (for the Worse)", Essex Student Journal 15(S1). doi: https://doi.org/10.5526/esj.346

- R. Heibroner: The Wealth of nations. Britannica. https://www.britannica.com/topic/the-Wealth-of-Nations
- H. Nakamura & F. Reynolds: Buddhism. Britannica. https://www.britannica.com/topic/Buddhism
- F. Naz & D. Bogenhold: From pursuit of self-interest to pursuit of happiness: Complementary or contradictory readings of "wealth of nations" and "theory of moral sentiments"? European Management Journal. Vo.٤٢, Issue ٦. https://www.sciencedirect.com/science/article/pii/S#٠٢٦٣٢٣٧٣٢٤٠٠١١٧٨:~:text=The٢٠٪.pursuit٢٠٪.of٢٠٪.wealth٢٠٪.for٢٠٪.vain٢٠٪.reasons٢٠٪.destroys٢٠٪.tranquillity٢٠٪.and,١٨).
- A. Pazaitis: The Value of Exploitation: How to Reclaim Our Lives and Livelihoods. Life After Growth. https://www.postgrowth.life/stories/2023-18--07the-value-of-exploitation-how-to-reclaim-our-lives-and-livelihoods-in-common/#:~:text=As%20vulnerable%20as%20it%20is,norms%20for%20it%20to%20function.